أسطورة

للأستاذ علي عبد الحي الحسني

من الأساطير التي سمعناها في الصغر وبقيت في غضون الذاكرة، وبعض ثناياها أن رجلا اعتدى عليه عفريت من الجن يمثل ما كان يعتدى به الجن على البشر فبرز الرجل بكل ما أوتي من حول وطول وبكل ما قدر عليه من سلاح وشكة ليقتله.

هجم الرجل على العفريت بكل سلاح ماض ولم يدع في القوس منزعا لكنه لم يشك عدوه ولم يصب منه مقتلا.

وما زال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ويجرب سلاحاً بعد سلاح والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأنه من نفسه على أمان، ومن سهام الرجل وهجماته في حصن حصين.

حار الرجل في أمره وأعياه أمر العفريت وكاد يقطع من قتله الرجاء إذ أخبره أحد العقلاء أن روح هذا العفريت في حوصلة ببغاء وهذه الببغاء في قفص من حديد، وهذا القفص معلق في غصن شجرة، وهذه الشجرة في غابة كثيفة يسكنها سباع ضارية وحيات فاتكة، وعقارب سامة، ودونها خرط القتاد، وحولها شم الجبال.

وما زال الرجل يطلع جبلا بعد جبل، ويقطع وادياً بعد واد ويقتل وحشياً بعد وحش، حتى خلص إلى هذا القفص وخنق هذه الببغاء، ولم يكد يقتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها الأرض والفضاء، وأظلمت بها آفاق السماء، وصاح العفريت صيحته الأخيرة وكان جثة هامدة .. وهكذا قتل الرجل عدوه بعد ما لقي منه عرق القربة.

لعلك سمعت هذه الأسطورة من عجوز في البيت تحكيها لأحفادها أو أسباطها فررت بها مستهزئاً وقلت:

حديث خرافة يا أم عمرو!

نعم إنها لحديث خرافة وأسطورة من أساطير الأولين، ولكنها تفيدنا بأن كل حي له مقتل ووريد ولا يؤثر فيه عدو حتى يصيبه في مقتله ويقطع منه الوريد، وأن دون ذلك المقتل وحول هذا الوريد حواجز وحصونا.

وقد تسلط على الأمة الإسلامية عفريت من الحياة الجاهلية واعتدى عليها بصنوف من الخبال وضروب من الأذى والوبال ظهرت في كثير من أخلاقها وأفعالها كاستخفاف بأحكام الشرع وتجرؤ على المعاصي، ووقوع في محارم الله، واستعباد لعباد الله وإمعان في الشهوات، وإسراف في سبيل المتع واللذات، وتهافت على الخسائس والرذائل، وفرار من مكارم الأخلاق والفضائل «وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا».

والناس طبقات: «عامة» و«أوساط» و«عظماء».

فأما العامة فساكين تدور حولهم رحى الحياة بسرعة لا يرفعون فيها إلى الدين والسعادة الأخروية والاستعداد للموت رأساً، وإنما همهم أن يؤدوا ضرائبهم، ويجمعوا لأيام فراغهم، ويكسوا عيالهم فهم يكدحون في الحياة كدح الحمير والثيران لا يتبعون إلا للراحة الموهومة، ولا يستريحون إلا للتعب الواقع، فهم من البيت إلى الدكان، ومن الفراش إلى المصنع أو السوق أو الإدارة، ومن نصب إلى نصب، ومن هم إلى هم، لا تنتهي همومهم ولا تنقضي متاعبهم، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها.

وأما الأوساط فهم أسوأ منهم حالاً وأكدر منهم بالاً، عذبهم الله بالحرص والجشع، ينظرون دائماً إلى من فوقهم، ولا ينظرون أبداً إلى من دونهم، فهم في هم متواصل وأحزان متسلسلة وشقاء مستمر وتذمر جبار وشكوى قائمة وأنين باق، يجرون في رهان لا ينتهي، ويسابقون جياداً لا تكل ولا تسبق، لا تزال قصب السبق بعيداً كلما انتهوا إلى غاية أخرى فجروا وراءها وهي تبتعد عنهم كما يبتعد الأفق من الطفل الذي يحاول دركه وشعاع الشمس الذي يريد قبضه، وهكذا يتفلت منهم «المثل الأعلى» في الغنى والثروة والرخاء والجاه، فيموت الواحد منهم كئيباً منكسراً لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عدتها، ويأتيه الموت فيقول «رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين»

وأما العظماء من الملوك وأبناء الملوك والأمراء فإنهم يريدون

فإن أبيتم لنا الاحصار المدرسة، وخناق البيت، وقبر المواهب، ووأد الرغبات، فلا تعذرونا... إذا خرجنا إلى الشارع نهتف، أو بقينا في الدرس نصفق، أو أسلمنا فكرنا وعقلنا لتيارات لا تتفق ورسالتنا السامية، وما يعلقه الوطن على جهودنا ويحوثنا من خير عظيم ...

الطاهر أحمد مكي

أن يلتهموا الدنيا طولا وعرضاً ، وينتهبوا المسرات جرياً وركضاً لايشفى غليلهم ولا يروى غليلهم وهم من دقائق الراحة إلى دقائق ، ومن بدائع إلى بدائع ، ومن ابتكار إلى ابتكار ، ومن لذيذ فى الطعام والشراب إلى ألذ ، ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والأزياء إلى أحدث ، لا تكفيهم فى ذلك موارد قطر بأسره ، ومنابع ثروة أمة بطولها ، حتى يلجأوا إلى استقراض وتجارات وضرائب جديدة وإتاوات ولا يبالون فى سبيل ذلك أن يرهنوا بأيدى عدوهم رداء الزهراء أو كساء أبى ذر أو شملة أويس أو مصحف عثمان أو صمصامة عمرو بن معدى كرب أو رمح الزبير أو بردة كعب بن زهير ويبيعوا صبوحاً أو غبوقاً .

وقد هجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كل جانب ورموه عن قوس واحدة ولكن لم ينكأوا عدوهم ولم يصيبوا منه مقتلا .

ألقى الوعاظ والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر دروساً فى الأخلاق وأحاديث فى الترغيب والترهيب ، وطمعوا الناس فى الجنة وحذروهم من النار وبشروهم بالوعد وخوفوهم من الوعيد فسمع الناس كل ذلك فى هدوء ، ولم يحرك منهم ساكناً ولم يغير منهم خلقاً .

ألف المؤلفون كتباً جاءوا فيها بكل رقيق ، أوردوا فيها حكايات زهد العمرين ، وتقشف على بن أبى طالب ، ومواعظ الحسن البصرى ، وكلمات ذى النون المصرى ، ورقائق الفضيل بن عياض ، وزهديات أبى العتاهية ، وفصاحة الواعظ ابن الجوزى، وتحليل الإمام الغزالى .

قوارع تبرى العظم من كلم مض

فقام الأغنياء والأمراء والملوك فاقتنوا هذه الكتب وزينوا بها مكاتبهم وتحدثوا عنها إلى ندمائهم وزائريهم فى لباقة ورشاقة ولكن لم تنفذ سهامها من العيون إلى القلوب ولم تجاوز أحاديثها تراقيهم .

قام الخطباء البارعون فألقوا خطباً أسمعت الصم واستنزلت العصم فسمعها هؤلاء وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ومضوا لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سيئة ولم يحدثوا لله عهداً لقد كان والله أقل من هذا يهز القلوب فى الجوانح

ويستفرغ الدموع من الشئون ويرجف القصور ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من أبناء السلاطين والأمراء مثل ابن أدهم وشقيق البلخى ، يسمع أحدهم — وهو خارج فى قنص أو رائع فى لهو — قارئاً يقرأ : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » الآية فيقول والله لقد آن ، والله لقد آن ، ويرى آلات اللهو ويخرج من أبهة الملوك وحشمة السلاطين إلى تبذل الفقراء وتقشف الزهاد .

فهل فقدت الألفاظ على تعاقب الأيام معانيها ، أم اعتلت الأذواق أم استعجمت اللغات أم ماذا ؟

إن شيئاً من ذلك لم يقع ، ولكن نفسية الإنسان تغيرت تغيراً عظيما. كان أمر الدين فى الزمان الماضى — برغم جميع أدوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية — جداً غير هزل . وكان أمر الدين يعنى كل واحد ويهمه كما تهم الحقائق والأمور الواقعة ، وكان دونه فى بعض الأحيان حجب من الترف والطبع والرسم وسوء المعرفة وقلة العلم فإذا ارتفعت هذه الحجب وتطرقت دعوة الدين إلى القلوب لم يحل دون التوبة وإصلاح الحال شىء .

أما الآن فقد أصبح الدين موضوعاً تاريخياً أو حديثاً علمياً بحتاً ، وأصبح الحديث عنه فى المجتمع المصرى كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالى وأخباره. لا يعود على المتحدث والمستمعين بضرر أو نفع ولا يطالبهم بعمل أو ترك ولا يمسهم فى صميم مسائلهم ولا يعنى الإنسان ولا يهمه فى حياته إلا بمقدار ما يتطرف بمعرفته ودراسته فى بعض المجالس أو ما يحادث به أهله عند الحاجة أو ما يجلب به نفعاً ويدفع به ضراً فى مجتمع لا يزال يدين بالدين أو يحترمه فليس له إلا قيمته المادية المؤقتة .

وأصبحت الحياة وتكاليفها جد الجد ولب اللباب وأصبحت مسائلها هم الشيخ ودروس الصبى وشغل الشاب ، وأصبح الجهاد فى سبيلها والنجاح فى ميدانها ، مقياس الفتنة والذكاء ومعيار الظرافة واللباقة ورمز المروءة والشهامة .

وهنا يقف الداعى الدينى حائراً فى أمره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة والنفسية الباردة فى سبيل الدين ، أنه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه ، وشكوكا وريباً تمكنت

من النفوس فملها بحكمته وملأ القلب إيماناً وطمأنينة ولكنه ههنا يجد نفسه فى موقف غريب لم يعهده ، فلا إنكار ولاجحود ولا إباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ولكن حياد تام فى مسألة الدين واستغناء عن كل مايتصل بالآخرة ، وإخلاد الأرض ، ورضى بالحياة الدنيا واطمئنان بها .

هنا يقف الداعى حائراً فى أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أى باب يدخلها ، إنه يجد حولها غشاء من حب الدنيا والمال فلاسبيل إليها ولا نفوذ فيها إلابطريق الدنيا والمال ، وأن سبيل الدين غير سبيل المال ، وأن طريق الغيب غير طريق الحس والشهود ، فماذا يصنع ومن أين يبدأ ؟

إنه ألقى على القوم مواعظه ووجه إليهم خطابه وحكمته وأجلب عليهم بخيل العلم والبراهين ، فذهب كل ذلك فيهم سدى وأجابه لسان الحال قائلا « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » .

قرأنا فى حكايات « ألف ليلة وليلة » أن السندباد البحرى وجد بيضة عنقاء فظنها لكبرها وضخامتها وملاستها قصراً من رخام فدار حولها لعله يجد باباً يدخل منه فى داخل القصر ودار مراراً عديدة ، ولكنه لم يجد باباً وعرف بعد ذلك أنها بيضة عنقاء لا قصر من القصور . .

كذلك يدور الداعى حول هذه النفسية المستديرة التى استهوتها الدنيا ، وغشى عليها حب المال أو الحياة فلا يجد فيها منفذاً ينفذ منه إلى النفسية وينزل فى أعماقها فيقطع منها الرجاء وينقلب منها خاسئاً وهو حسير .

روح هذا العفريت الجاهلى إذن هو الإخلاد إلى الأرض والرضى بالحياة الدنيا وعبادة المال والمادة ...

هذا مقتل هذا العفريت وهذا أبهره ووريده .

وإنما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة المؤلفين ، وأصحاب اليراع وإخلاص المخلصين وحكمة الحكماء لأنهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصيبوا العدو فى مقتله .

بلغت المادية أوجها فى عهد الاستيلاء الأوربى وأصبحت فلسفة وفناً وحياة ودنيا ، وليس مظهر من مظاهر حياتها ، ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم إلا والفضل فيه يرجع إلى أوربا وسيطرتها السياسية والاقتصادية مباشرة أو بواسطة والى غزوها التجارى والمالى .

نافس تجار الغرب بدافع من حب الغنى والثروة واحتكار الأموال — فى الصناعة والانتاج وغزوا ببضائعهم الشرق وامتصوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لبانتهم لأن نطاق الضرورة ضيق والجشع ما له نطاق فنافسوا فى انتاج دقائق المدنية وفضول الصنائع وكماليات الحياة وصبوها على الشرق صباً واستهلكوا فى ترويجها كل ذكاء وأدب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سذاجة الشرق وحبه للدعة والفخر ، فما لبثت هذه الدقائق والكماليات إن دخلت فى أصول المعاش ولوازم الحياة فى الشرق ، وأصبح الذى لا يتحلى بها لا يعد من الاحياء ، ولا يعامل فى المجتمع معاملة سواء ، وأخذت بتلابيب الشرق وأذهلته عن الدين والآخرة ، وعن كل شىء غيرها فى الدنيا ، وهاجت عليه هموماً لا إرجاء لها وبعثت فيه شرها للمال لا نهاية له ، وأجنحت عليه الحياة جحيما لا يسمع فيها إلا « هل من مزيد » .

وما يكاد الشرق يصل إلى هذه المنتجات وشروط الحياة على جسر من المتاعب والمصائب وعلى طريق من شوك وقتاد ، ولا يكاد يتحلى بها إلا وتصبح هذه المستحدثات آثاراً عتيقة وأطماراً بالية ، ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات فينكص على عقبيه ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم — بوجه مشروع أو غير مشروع — ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه إلا ويرحل المنسوخ ويحل الناسخ — وهكذا لا يزال من حياته فى جهاد مضن شاق ، ومع المصانع الغربية والتصدير الغربى فى رهان دائم يسبقه فيلحقه ويلحقه فيسبقه ، ولا يزال من عيشه فى مضض وغصص يتجرعه ، ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت .

أفسدت المدنية الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، ألانت منهم الفتاة وأطفأت فيهم جمرة الحياة ، وأحدثت فيهم التخنث الأوربى . وأصبحت الفروسة العربية والنخوة التركية والفتوة الفارسية والبطولة الهندية والغيرة الأفغانية حديثاً من أحاديث التاريخ وأصبحت الحياة فى حواضر الشرق بل وفى بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة لها ضراتها وليست لها سراتها ولها الغرم دون الغنم .

أصبح الناس فى كل بلاد فى تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أمرهم شيئاً وأصبح الوالد لا يملك ولده والماهل لا يملك أهل بيته بل وأصبح الإنسان لا يملك نفسه أمام الهوى وانتقاد المجتمع اللاذع ووخز الضمير وغاص الناس فى بحر المدنية إلى آذانهم فترى الصعاليك من العجم يغدون فى حلة ويرجعون فى أخرى ، وترى الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء ، يتطاولون فى البنيان ويتفاخرون باقتناء السيارات الأمريكية من أحدث الطراز وأفخر الأنواع ، حتى يخاف أن تنقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التى ملأت التاريخ والأدب لجديتها وأحبارها .

شحنت البضائع الغربية أسواق الشرق الإسلامى وأنبتت شرائين التجارة الغربية وعروقها — وهى طلائع السيادة الغربية وسيطرتها السياسية ومهامها التى لا تطيش — فى جوف أقداس البلاد الإسلامية واحشائها وجاست خلال الديار وأصبح أهلها عالة على البضائع الأجنبية حتى غدوا لا يتصورون الحياة والمعيشة بغيرها ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح إلا بها ، وامتصت هذه البضائع أموالهم بل دماءهم كالإسفنج تشربها فى بلادهم ، وصبتها فى بلادها — وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق جبينه وكد يمينه وبرز ميتة فى أخلافه ، وعلى حساب دينه ينتقل إلى البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الإسلامية لتحقيق مشاريعها العمرانية كما تقول أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس إلى الاستدانة من الدول الأجنبية فخفت لذلك ورحبت به ورضخت لها بعض المال على شروط تجارية وامتيازات سياسية ، وأقبلت على البلاد الإسلامية تحلب ضرعها وتستخرج الذهب الوهاج وماء حياة الصناعة والتجارة (البترول) من بطونها وتهتبل فرصة العمل فى أرضها فتنشط ارساليتها وتنشر فى أهلها المسلمين « رسالة الدين والحضارة » وتلحق عدواها المعنيين فى الجهالة والفقر والبداوة ، وتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء والجياع على المائدة وهكذا أصبح بلاد الإسلام بين أخطار من التنصر والإلحاد والاحتلال الأجنبى » .

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب السلول المسموم الذى ولدته الثورة الفرنسية وارتضعته الفوضى الخلقية ، والإباحة فى أوربا وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذى ينبت فى القلوب النفاق ، ويسقى غرس الشهوات ويقوض دعائم العمران ويفسد نظام الأسرة ويسخر من كل فضيلة ، ويستهين بكل ادب ونظام ويزين للقارىء مذهب اللذة والانتفاع وانتهاز الفرص ويلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم فى حب المال والميل الجنسى ، ويصور العالم كله كأنه ليس إلا ظهور هاتين العاطفتين وليس وراء ذلك حقيقة علمية أو مبدأ سام ، أو غرض شريف .

وقد انتشر هذا الطابور فى أنحاء العالم عن طريق الأدب ، والروايات والمجلات والراديو ، والسينما وتأثر به الحاضر والبادى وتحدثت به المواتق فى خدورها ، وصار ينخر صرح الحضارة الدينية والأدب الإسلامى حتى تسرب العطب اليوم إلى لبابه .

وهكذا أصبح العالم كله شعوباً وحكومات وأفراداً تحت سلطان المادية والجاه والشهوات ، قد شغلت منه كل موضع ومنفذ وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكت فى سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكائه ، وخلقت فى الإنسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ولا تفكر إلا فى اللذة والهناءة والسعادة الدنيوية ولا تهتم إلا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التى ما أنزل الله بها من سلطان والتى إنما فرضها على الإنسان الحياة المزورة والمجتمع الفاسد والتجارة الجشعة .

كيف يحل فى هذه المادية الدين الذى أساسه الإيمان بالغيب وإيثار الآخرة على العاجلة الذى يقول « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هى الحيوان لو كانوا يعلمون » والذى يقول « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » والذى يقول نبيه صلى الله عليه وسلم « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ويقول « حفت الجنة بالمكاره »

إذن فالمادية فى هذا العصر هى علة العلل وعدو الدين الألد ومزاحمه الأكبر ، وأن أوربا هى زعيمها الذى تولى كبرها ووكرها الذى تطير منه وتأوى إليه وفيه تبيض وتفرخ .

فأين ذلك البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الجنى على مسرح التاريخ والواقع ؟ ؟

لكهنو (الهند) **على عبد الحى الحسنى**